پژوهشگاه علوم انساني و مطالعات فرهنگي
آفاق الحضارة الإسلامية، العدد الخامس و العشرون، صص ٣٧-٥٢

الصعاليك و شعرهم في العصر الجاهلي

الدكتور حسن سرباز*

ملخص البحث

حياة الصعاليك إحدى مظاهر الحياة الجاهلية التي يلفّ الغموض بعض جوانبها. و الصعاليک هم المتمرّدون على الأوضاع و التقاليد القاسية السائدة في المجتمع الجاهلي، و هم الخلعاء الذين خلعتهم قبائلهم و الأغربة الذين نبذهم آبائهم.

و تهدف هذه المقالة إلى إلقاء الضوء على ظاهرة الصعلكة في العصر الجاهلي و بيان أخلاق الصعاليک و خصائصهم كما تهدف إلى بيان مكانة شعرهم من بين الشعر الجاهلي و أهم مضامينه و خصائصه.

الكلمات الدليليّة: العصر الجاهلي، الشعر الجاهلي، الصعاليک، الفقر، الإيثار، الثورة على الواقع.

المقدمة

الحياة الجاهلية لها جوانب مختلفة لا يستطيع الدارس أن يلمّ بها إلماماً كاملاً، وذلك لامتداد العصر الجاهلي إلى فترات مختلفة من التاريخ لا نعرف منها شيئاً سوى ما أشير إلى بعضها بصورة موجزة في القرآن الكريم، والأحاديث النبوية الشريفة، وما قيل على ألسنة الشعراء والقصاصين والرواة المحترفين. وفي الحقيقة ما وصلنا من

تاريخ وصول: ١٣٨٨/١٠/١٣ تاريخ پذيرش ٨٨/١٢/١١
*. أستاذ مساعد بجامعة كردستان baboleh2000@yahoo.com

العصر الجاهلي إلى امتداده وسعته قليل جداً وربما لعبت به ذاكرة الرواة مما جعله في معرض التحريف والضياع والانتحال.

وحياة الصعاليك هي أحد مظاهر الحياة الجاهلية، وهم المتمردون على الأوضاع والتقاليد القاسية السائدة على المجتمع الجاهلي، وهم الخلعاء والأغربة الذين ثاروا على قانون القبيلة وحملوا السيف لإعادة التوازن الاجتماعي إلى حياة مجتمع اختلت موازينه ومقاييسه.

وفي هذه المقالة نرغب أن نلقي الضوء على ظاهرة الصعلكة في العصر الجاهلي ونشير إلى شعر الصعاليك وأهم ميزاتهم الشعرية.

الصعلكة ومفهوم الصعلوك

الصعلكة في اللغة بمعنى الفقر، والصعلوك هو الفقير الذي لا مال له ولا اعتماد. ويقال تصعلك الرجل إذا افتقر، ومن هذا المعنى قول حاتم الطائي:

غنينا زمانا بالتّصعلك والغِنى ... فكلا سقاناه بكاسيهما الدهر
فما زادنا بغياً على ذي قرابة ... غنانا ولاازرى باحسابناالفقر[1]

وقال جابر بن ثعلبة الطائي:

كانّ الفتى لم يعر يوماً إذا اكتسى ... ولم يك صعلوكاً إذا ما تموّلا

وروي أن النبي (ص) كان يستنصر بصعاليك المهاجرين أي فقرائهم.[2]

ففي هذه النصوص قد استعمل لفظ الصعلوك للفقير الذي لا يملك من المال ما يعينه على أعباء الحياة، ولكن لم تقف هذه اللفظة في الجاهلية عند دلالتها اللغوية الخالصة، بل قد أخذت تدل على من يتجردون للغارات وقطع الطرق وسمّوا بالصعاليك، ونجد منهم في الجاهلية ثلاث مجموعات:

١ـ مجموعة من الخلعاء الشذاذ الذين خلعتهم قبائلهم لكثرة جرائرهم مثل حاجز الأزدي وقيس بن الحدّادية وأبي الطمحان القيني.

٢ـ مجموعة من أبناء الحبشيات السود، ممن نبذهم آباؤهم ولم يلحقوهم بهم لعار

١. ابن منظور، لسان العرب، بيروت، دار احياء التراث العربي، ١٩٨٨م، الطبعة الأولى، ج٧، ص ٣٥٠.
٢. احمد حوفي، الحياة العربية من الشعر الجاهلي، القاهرة، دار نهضة مصر، الطبعة الخامسة، ص ٢٩٩.

ولادتهم، مثل السليك بن السلكة، وتأبط شراً والشنفرى، وكانوا يشركون أمهاتهم في سوادهم، فسمّوهم وأضرابهم (أغربة العرب).

٣ـ مجموعة لم تكن من الخلعاء ولا من أبناء الإماء الحبشيات، غير أنها احترفت الصعلكة احترافاً، وهذه المجموعة قد تكون أفراداً مثل عروة بن الورد العبسي، وقد تكون قبيلة برمّتها مثل قبيلتي هذيل وفهم اللتين كانتا تنزلان بالقرب من مكة والطائف على التوالي.[١]

أخلاق الصعاليك وخصائصهم

بالرجوع إلى حياة الصعاليك وآشعارهم، نرى أنهم يتميّزون بما يلي:

أ ـ الفقر وحدة الجوع:

فبالرجوع إلى أخبار الصعاليك، نجد أن الفقر صفة بارزة ومميزة لديهم، فكل الصعاليك كانوا فقراء حتى عروة بن الورد سيد الصعاليك كان صعلوكاً فقيراً مثلهم، ولذلك نجد في شعره كثيراً من وصف حالة الفقر وما يتكبّده في سبيل الغنى من جهد ومشقة من أجل نفسه وأصحابه الصعاليك فيقول داعياً الناس إلى طلب الغنى:

دعيني للغِنى اسعى فإني ... رأيتَ الناسَ شرّهم الفقيرَ
وابعدَهم واهونهَم عليهم ... وإن امسى له حسبٌ وخيرَ
ويَقصِيه النديّ وتزدريه ... حليلتُه وينهره الصغيرُ[٢]

و في موضع آخر يحضّ الناس على طلب الامعاش و رفض الذل و السؤال و يقول:

إذا المرءَ لم يطلب معاشاً لنفسه ... شكا الفقرَ او لام الصديقَ فاكثرا
وصار على الادنين كلاً و اوشكت ... صِلاتَ ذوي القربى له ان تنكّرا
وما طالبُ الحاجاتِ من كلِّ وجهةٍ ... من الناسِ إلاّ مَن اجَدّ وشَمّرا
فسِرْ في بلادِ اللهِ والتمس الغِنى ... تعِش ذا يسارٍ او تموت فتعذرا[٣]

وفي الحقيقة كان الفقر وشدة الجوع من الأسباب الرئيسية التي أثارت حفيظة هذه

١. شوقي ضيف، العصر الجاهلي، القاهرة، دار المعارف، ص ٣٧٥.
٢. ابن سكيت، شرح ديوان عروة بن الورد، بيروت، دار الكتاب العربي، الطبعة الأولى، ١٩٩٤، ص٦٣.
٣. نفس المصدر، ص٦١-٦٢.

الفئة من الناس وجعلتهم قطّاع طرق يسلكون أسلوب القوة والتمرّد.

ب ـ الثورة على واقعهم الاجتماعي والابتعاد عن الحياة القبيلة وما فيها من أعراف ظالمة، والتوجه إلى الطبيعة وما فيها من حياة فطرية بحيث يعدّون الحياة مع الذئاب والنمور والضباع أفضل من الحياة مع قومهم الذين خذلوهم واحتقروهم.[١]

يقول الشنفرى في لاميته:

اقِيمَوا بنِي امِي صدورَ مطيَكم ... فإني إلى قومٍ سواكم لاميلَ
فقد حَمّت الحاجاتَ والليلَ مقمرَ ... وشُدّت لطيّاتٍ مطايا وارحَلَ
وفي الارضِ منأى للكريمِ عن الاذى ... وفيها لِمَن خافَ القِلى متغزّلَ
ولي دَونكم اهلون سِيدَ عملّسَ ... وارقطَ زهلولَ وعرفاءَ جيألَ
هم الاهلَ لا مستودعَ السرَ ذائعَ ... لديهم ولا الجاني بما جرّ يَخذَلُ[٢]

ج ـ الفخر بالشجاعة والعدو السريع، لأنهم كانوا شجعاناً مغامرين لا يبالون بالموت في سبيل تحقيق أغراضهم. فحياتهم تتطلب مثل هذه الصفات، فهم كانوا دائماً في حالة مطاردة و كرّ وفرّ وتضرب بهم الأمثال في شدة العدو، فيقال: (أعدى من الشنفرى)[٣]، وامتازوا جميعاً بسرعة الحركة والخفة والعدو والخبرة بدروب الصحراء. يقول عروة بن الورد في جواب زوجته التي كانت تلومه على حياته القائمة على المخاطر و الغزوات:

اقِلّي عليّ اللومَ يا بنتَ منذرٍ ... ونامِي وإن لم تشتهي النومَ فاسهَري
ذَريني ونفسي، امّ حسانَ إنني ... بها قبلَ ان لا املكُ البيعَ مَشتَري
احاديثُ تبقي، والفتى غيرَ خالدٍ ... إذا هو امسى هامةً فوقَ صيَّرِ
ذَريني اَطوَف في البِلادِ لعلّني ... اُخلّيك او اَغنيك عن سوءِ محضري
فإن فازَ سهمٌ للمنيةِ لم اكُن ... جزوعاً وهل عن ذاك من متاخّرِ[٤]

ويقول في وصف الصعلوك الحقيقي:

ولكنّ صعلوكاً صحيفةَ وجهه ... كضوءِ شهابِ القابسِ المتنوّرِ
مَطلاً على اعدائِه يزجَرونهَ ... بساحتِهم زجرَ المنيحِ المشهّرِ

١. محمد علي آذرشب، الأدب العربي وتاريخه حتى نهاية العصر الاموي، طهران، سمت، ١٣٨١، الطبعة الرابعة، ص ٨٧.

٢. الشنفرى، ديوان الشنفرى، بيروت، دارالكتاب العربي، الطبعة الأولى، ١٩٩١م، صص٥٨-٥٩.

٤. الميداني النيسابوري، أبو الفضل أحمد بن محمد، مجمع الأمثال، بيروت، دار المعرفة، ج٢، ص٤٦.

٤. ابن سكيت، المصدر السابق، صص٤٥-٤٦.

إذا بَعَــدَوا لا يــامنونَ اقترابَــه تشــوّفَ اهــلِ الغائــبِ المتنظّــرِ
فــذلك إن يلــقَ المنيــة يلقهــا حميـداً، وإن يستغن يومـاً فاجـدِرِ[1]

فالصعلوك الحقيقي عند عروة بن الورد هو الصعلوك الشريف الأبيّ الذي يَتَلألأ وجهه قوّة و نضارة كأنّه كوكب منير، و هو الصعلوک الجريء المغامر الذي يرعب أعداءه ولا يبالي بهم، فإن قتل كان مشكوراً مذكوراً بالجرأة، وإن غنم كان بالغنيمة جديراً.

د ـ تحمّل المشاق ابتعاداً عن الذل، وهذه قيمة رفيعة تطرّق اليها أشعار الصعاليك. فهم أباة ضيم لا يقبلون الذل في سبيل لقمة العيش ويفضّلون الجوع على الذل والموت على الخضوع، يقول أبو خراش الهزلي:

وإنّــي لأثــوي الجــوع حتــى يملّنــي فيـذهب لـم يـدنس ثيـابي ولا جرمـي
وأغتبــقُ المــاءَ القــراحَ فــأنتهي إذا الــزادُ امســى للمــزلّجِ ذا طعــمِ
مخافــةَ ان احيــا بــرغمٍ وذلّــةٍ وللموتُ خيرٌ من حياةٍ على رغمِ[2]

فهو يتحمل الجوع حتى ينكشف عنه دون أن يقبل فيه ضيماً وعاراً، ويكتفي بشرب الماء القراح، بينما البخلاء حوله يتمتّعون بأنواع الأطعمة والأشربة، ويفعل كل ذلك حتى لا يوصم بعار ويبتعد عن الذلة والخضوع، لأن الموت عنده أولى من حياة فيها إرغام.

والصعاليك كانوا يفضلون تحمّل الجوع على قبول منة الآخرين.[3] يقول الشنفرى في ذلك:

اديــمَ مطــالَ الجــوعِ حتــى اميتــه واضـربَ عنـه الذكرَ صفحـاً، فاذهلَ
واستفّ ترب الارض كي لا يرى لـه علــيّ مــن الطــولِ امــرؤٌ متطــوّلَ
ولــولا اجتنــابُ الذامِ لـم يُلفَ مشـربٌ يُعــاشُ بــه إلا لــدَيّ وماكــلُ
ولكــنّ نفســاً حــرّةً لا تقــيمُ بــي علــى الــذامِ، إلا ريثمــا اتحــوّلُ[4]

فهو يتحمّل الجوع ويتجوّل في الفلوات ويبتلع غبارها كي لا يرى منّة الممتنّين وتكبّر المتكبّرين، ولا يتحمل كل هذا لعجزه، بل لولا تجنّب النقص والعار لكان

١. نفس المصدر، ص٥١-٥٢.
٢. محمد علي آذرشب، المصدر السابق، ص ٨٨.
٤. محمد عبدالمنعم الخفاجي، دراسات في الأدب الجاهلي والاسلامي، بيروت، دار الجيل، ١٩٩٢م، ص ١٧٧.
٤. الشنفرى، المصدر السابق، صص٦٢-٦٣ ٧.

يستطيع أن ينال كل ما يشتهيه ولكن نفسه الأبية تأبى عليه أن يبقى على ذلّ وهوان.

هـ ـ الإيثار والكرم: ويصل الصعاليك إلى مثالية خلقية رفيعة لا تقل جمالاً عن مثالية عنترة بن شدّاد العبسي حين يتحدّثون عن إيثار الآخرين على أنفسهم، وبذلهم للفقراء والمعوزين، وكأنما تحوّلت الصعلكة في أواخر العصر الجاهلي إلى نظام يشبه نظام الفروسية، لأنها وإن كانت قائمة على السلب والنهب ولكنّهم كانوا لا يسلبون ولا ينهبون سيداً كريماً بل إنما كانوا يسلبون البخلاء الأشحاء.[١]

يقول عروة بن الورد في جواب أخيه الأكبر الذي كان يلومه على نمط عيشه و صعلكته و يفخر عليه برفاهيته:

إنّي امرؤٌ عافي إنائي شركة ... وانت امرؤ عافي إنائِك واحدَ
أتهزأ منّي ان سَمِنتَ وان ترَى ... بوجهي شحوبَ الحقّ والحقّ جاهدَ
أقسَّمَ جسمي في جسومٍ كثيرةٍ ... واحسُو قراحَ الماءِ والماءُ باردَ[٢]

وعروة يعبّر عن معنى انساني رفيع، إذ عيّره أخوه الأكبر بالشحوب والهزال فيقول له: يشركني في إنائي كثير من الفقراء المحتاجين والعفاة المعوزين، وأنت تأكل وحدك ولا يشركك أحد، ولذلك سمنت وأما أنا فأصبحت ضامر البطن، نحيل الجسم، وشاحب اللون، وما شحوب جسمي إلا أثر من آثار قيامي بحقوق هؤلاء المحتاجين، فلست أنا خليقاً بالهزء والسخرية، بل أنت الأحرى بهما، ثم قال: أقسّم جسمي في جسوم الفقراء أي أقسّم طعامي بيني وبينهم، بل كثيراً ما أوثرهم على نفسي.

و ـ أنهم لم يجدوا عيباً في عملهم، بل كانوا يفاخرون به ويرونه نوعاً من الفتوّة و القصاص من البخلاء والتضامن الاجتماعي، يقول أحد الصعاليك مفتخراً:

وعيابة للجود لم يدرِ انّني ... بإنهابِ مال الباخلين موكّلُ
غدوتُ على ما احتازه فحويتُه ... وغادرتُه ذا حيرةٍ يتململُ[٣]

آراء الصعاليك الاجتماعية والاقتصادية

الظاهرة المهمة التي تلفت النظر في حياة الصعاليک الاجتماعية هي فقد

١. شوقي ضيف، المصدر السابق، ص ٣٧٦.
٢. ابن سكيت، المصدر السابق، صص٣٤-٣٥.
٣. احمد حوفي، المصدر السابق، ص ٣٠٦.

الإحساس بالعصبيّة القبليّة التي كانت قوام المجتمع الجاهلي و تطوّرها في نفوسهم إلى عصبيّة فئويّة، و ذلک لأنّ الخلعاء و الشذاذ فقد تخلّت عنهم قبائلهم و سحبت منهم الجنسيّة القبليّة، و أن الأغربة فقد أدركوا أنّ قبائلهم لا تكاد تعترف بهم، بل تكاد تنكر صلتها بهم، إذن لم يكن هناک ما يوجب حرصهم على العصبيّة القبليّة.[١] ولذلک قد انقلب الصعاليک على قبائلهم بعض الأحيان و وجّهوا غزواتهم إليها. فقد جاء في أخبار قيس بن الحدادية أنه لمّا خلعته قبيلته، جمع لهم شذّاذاً من العرب و فتاكاً من قومه و أغار عليهم بهم.[٢] وقد تحدّث الشعراء الصعاليك عن هذا الانقطاع بينهم و بين قبائلهم فأعلن أبو الطمحان القيني أنّه قد نسي أهله في جوار من استجار بهم بعد خلعه و أصبح كأنّه واحد منهم حتى قد عرفت كلابهم ثيابه فما تهرّ عليه.

وقد عرفت كلابهم ثيابي ... كأني منهم ونسيتَ اهلي[٤]

وتحدّثوا أيضاً عن كرمهم رغم فقرهم المدقع الذي هم فيه و صوّروا جوعهم و مكانتهم الاجتماعية في الدنيا، فقال عروة بن الورد:

إذا قلتَ قد جاء الغِنى حال دونه ... ابو صِبيةٍ يشكو المفاقرَ اعجفَ
له خلّة لا يدخلَ الحقَ دونها ... كريمَ اصابته خَطوبَ تجرَفَ
فإنّي لمَستافَ البلادِ بسَربةٍ ... فمُبلِغُ نفسي عُذرَها او مطوّفَ
رايتُ بني لَبنى عليهم غضاضةً ... بيوتُهم وسط الحلول التكنّفَ[٥]

ورسم السُلَيكُ بنُ السُلَكةِ صورة الضم والهوان وسوء المعاملة التي تعانيها خالاته الإماء السود بسبب لونهن وهو عاجز أن يفعل لهنّ ومن أجلهنّ شيئاً حتى ليشيب رأسه مما يقاسيه نفسياً من أجلهن فيقول:

اشابَ الراسَ اني كلّ يومٍ ... ارَى لي خالةً وسط الرّحالِ
يشُقّ عليّ ان يلقين ضيماً ... ويعجِز عن تخلّصهنّ مالي

١. يوسف خليف، الشعراء الصعاليک في العصر الجاهلي، القاهرة، دار غريب، صص١١٠-١١١.
٢. أبو الفرج الإصفهاني، الأغاني، بيروت، دار الفكر، الطبعة الثانية، ج١٤، ص١٤٣.
٤. عمرو بن الجاحظ، الحيوان، بيروت، دار الجيل، ١٩٩٦م، ج١، ص٣٨١.
٤. ابن سكيت، المصدر السابق، ص٧١.
٥. سليک بن السلكة، ديوان السُليك، بيروت، دار الكتاب العربي، الطبعة الأولى، ١٩٩٤م، ص٨٩.

وطموح الصعاليك في حياتهم هو الغنى، وهو الهدف الذي يسعون اليه ولكنّهم لكرمهم لا يدّخرون المال حتى يصبحوا أغنياء، بل إنهم يوزّعونه على الفقراء والأيتام والمحتاجين.

شعر الصعاليك

حينما نقايس شعر الصعاليك بشعر بقية الشعراء الجاهليين المشهورين، نرى أن شعر الصعاليك قليل جداً بالنسبة إلى شعرهم، ولعلّ ذلك يرجع إلى أن الصعاليك كانوا شعراء مغمورين غير معروفين خرجوا على مجتمعهم وقبائلهم وتمرّدوا على أوضاعهم وتقاليدهم بحيث لم يحرصوا على قبائلهم ولم يهتموّا بشؤون القبيلة في شعرهم، ولذلك لم تحرص القبائل ايضاً عليهم ولم يهتم بشعرهم رواة القبائل الذين كان لهم دور بارز في حفظ الشعر الجاهلي فضاع جزء كبير من شعرهم، ولكن مع ذلك فقد وصل الينا بعض من شعرهم مبعثراً بين المصادر التالية:

أ ـ كتب الثقافة العربية المختلفة.

ب ـ مجموعات المختارات من شعر الشعراء.

ج ـ كتب التراجم.[١]

و قد ذكر النقاد ثلاث ملاحظات على شعر الصعاليک وهي قلّتها و كثرة الاضطراب في رواية نصوصها ثم الشک الذي يحيط ببعض نصوصها. أما قلّتها فترجع إلى ضياع جزء كبير من شعرهم كما قلنا سابقاً. و الاضطراب في رواية نصوصها يرجع إلى تمرّدهم على قبائلهم و عدم رواية أشعارهم من جانب رواة القبائل و تبعثرها بين مصادر الأدب العربي المختلفة. و الشک في بعض نصوصهم مردّه إلى قضية الانتحال في الشعر الجاهلي.[٢]

١. محمد رضا مروّة، الصعاليك في العصر الجاهلي، بيروت، دار الكتب العلمية، ١٩٩٠م، الطبعة الاولى، ص ٤٣.

٢. يوسف خليف، المصدر السابق، صص١٦٣-١٦٤.

موضوعات شعر الصعاليك

١ـ المغامرة:

وهي ظاهرة طبيعية لفئة من الناس اتخذت الغزو والنهب قانون حياتها وتسلّحت بالقوة والرجولة، فالشعراء الصعاليك يصفون كل ما يحدث في مغامراتهم منذ الشروع في وضع خطة الغارة إلى أن تنتهي الغارة بتحقيق أهدافها وهم يصفون في أثناء ذلک الطريق الذي سلكوه و يتحدّثون عن رفاقهم في الغارة و دور كلّ واحد منهم كما يتحدّثون عن كيفيّة انتهاء الغارة و عودة فتيان الصعاليک إلى ملاجئهم سالمين بعد القتل و السلب و النهب.

يصف الشنفرى في قصيدته التائية غارة أغارها على بني سلامان في جمع من رفاقه الصعاليك وعلى رأسهم تأبط شراً، ونراه في مستهلّ وصفه يحدّثنا أنه كان يقودهم ويعرفنا بالطريق الذي سلكوه، وأنهم كانوا راجلين يقتحمون الصعاب غير وجلين فيقول:

وباضعةٍ حَمْرِ القِسِيِّ بعثْتُها ... ومن يغزَ يَغنَم مرةً ويُشَمّتِ
خرجنا من الوادي الذي بين مِشعلٍ ... وبين الجبا، هيهات، انشاتَ سَربتي
امشّي على الارض التي لن تضرّني ... لانكي قوماً او اَصادف حَمّتي
امشّيَ على ايِن الغَزاةِ وبعدِها ... يَقرَبَني منها رواحِي وغَدوتي

ثم يصوّر لنا كيف كانت أم عيال (تأبط شيراً) تحملُ زادهم وتقترعليهم في الطعام خيفة أن تطول الغزوة بهم فيموتوا جوعاً.

وامّ عيالٍ قد شهدتُ تقوتُهم ... إذ اطعمتهم اوثَحَت واقلّت
تخافُ علينا العيلَ إن هي اكثرَت ... ونحنَ جِياعٌ ايّ التِالِت[1]

٢ـ شعر المراقب

ونجد في شعر الصعاليك التحدّث عن تربّصهم بأعدائهم وتحيّن الفرصة المناسبة للانقضاض عليهم وكان التربص يتم من خلال المرتفعات المشرفة على الطرق والمسالك والتي كانوا يسمّونها (المراقب). ويقومون بعملهم هذا مع بداية الليل، لأن الليل أحصن للتخفي والهرب، وفي الحقيقة الليل عندهم نهار. ويرسم الشنفرى لوحة بديعة لمرقبة منيعة عالية يعجز دونها الصياد الماهر، فيصف كيف أنّه صعد إليها في

١. الشنفرى، المصدر السابق، ص ٣٤-٣٥.

شدة ظلام الليل و كيف قضى الليل فوقها متربّصاً محدباً على ذراعيه فيقول:

ومرقبـــةٍ عنقـــاءَ يقصُـــرُ دونَهـــا اخـو الضَـروةِ الرَجـلَ الخفيـيّ المخفّـفُ
نعِيـتَ إلـى اعلـى ذَراهـا وقـد دنـا مـن الليـلِ ملتَـفّ الحديقَـةِ اسـدفُ
فبِـتّ علـى حـدَ الـزراعينِ مَحـدبا كمـا يتطـوّى الارقـمَ المتعطّـفُ[1]

ويصف عمرو ذوالكلب المرقبة التي كان يتربّص فوقها بأنها بعيدة واسعة عالية و هو متربص فوق طرفها طول يومه يخفي نفسه حتى إذا حانت الفرصة تحدّر فوقها تحدّر الماء الزلال:

و مرقبـــةٍ يحـــارُ الطـــرفُ فيهـــا تـــزلّ الطيـــرَ مشـــرفة القـــذالِ
اقمـــتُ بِرَيـــدِها يومـــاً طـــويلاً و لـــم اَشـــرف بهـــا مثـــلَ الخيـــالِ
و لـم يشـخص بهـا شـرفي و لكـن دنـــوتَ تحـــدّرَ المـــاءِ الـــزلالِ[2]

٣ـ التوعد والتهديد

وتحدث الصعاليك في شعرهم عن التوعد والتهديد، فالشنفرى مثلاً يتوعد بني سلامان الذين يناصبهم العداء والبغضاء ويكرههم حتى العظم، لأنهم كانوا السبب المباشر في حياته السيئة وتصعلكه، فهو يتوعّدهم ويهدّدهم ويتعهّد أنه لن يكفّ عن غزوهم، وكل ما يرجوه هو أن يمدّه الله بعمره حتى يشفي غليله منهم حين يلاقيهم في عقر دارهم:

فـــإلاّ تزُرنـــي حتفتـــي او ثلاثِنـــي اَمَـــشَ بـــدهرٍ او عـــدافٍ فنـــوّرا
اَبغَـي بنـي صـعب بـنِ مـرَ بـدارهم وســـوف اَلاقـــيهم إن اللهَ اخّـــرا
ويومـاً بـذاتِ الـرسَ او بطـنِ مِنجـلِ هنالـك نبغـي القاضـي المتغـوّرا[3]

ويخبر عمرو ذوالكلب أعداءه بأن الصراع بينه و بينهم سيكون مريراً لا رحمة فيه و ينذرهم بأنه لا يرحمهم إذا غلب عليهم كما أنه لا يريد منهم رحمة إذا غلبوا عليه:

فـــإن اثقفتمـــوني فـــاقتلوني و إن اثقـــف فسـوف تـــرون بـــالي
فـــابرحُ غازيـــاً اهـــدي رعـــيلاً اَؤُمّ ســـوادَ طـــودٍ ذي نِجـــالِ
و ابـرحُ فـي طـوالِ الـدهرِ حتّـى اَقـيمَ نسـاءَ بجلـةَ بالنِعـالِ[4]

---

١. نفس المصدر، صص٣٤-٣٥.
٢. يوسف خليف، المصدر السابق، ص١٨٣.
٣. الشنفرى، المصدر السابق، ص ٥٢.
٤. وسف خليف، المصدر السابق، صص١٨٦-١٨٧

٤ـ وصف الاسلحة

السلاح هو الوسيلة الطبيعية للدفاع عن النفس عند الصعاليك، وهو يشكّل مع قوة قلوبهم وقوة أرجلهم ثالوثاً يتكامل في الفرد ليكون قوياً شجاعاً ويحقق أهداف الغزو والسلب، ويجمع هذه القوى الثلاث تأبّط شراً في رثائه للشنفرى حيث يقول:

فلا يبعدنّ الشنفرى وسلاحَه الحديدَ وشـــــدّ خطـــــوَه متـــــواترَ
إذا راع روع الموتِ راع وإن حمى حمـــى معـــه حـــدّ كـــريم مصـــابر[١]

والأسلحة التي أتت في شعر الصعاليك هي نفس الأسلحة التي كانت موجودة في العصر الجاهلي سواء منها أسلحة الهجوم مثل السيف، والرمح، والقوس، والسهام، أو أسلحة الدفاع مثل الدرع، والترس.[٢]

فالشنفرى مثلاً يصف السيف والقوس ويعدّهما من الأشياء الثلاثة التي تغنيه عن غيرها ويقول:

وإنـي كفـاني فقـدَ مـن لـيس جازيـاً بجَسـنى، ولا فـي قربـه متعلّـلَ
ثلاثـةَ اصـحاب، فـؤادَ مشـيّعٌ وابـيضَ إصـليتَ وصـفراءَ عيطـلَ
هتـوفَ مـن الملـس المتـون يزينهـا رصـائعَ قـد نيطـت إليهـا ومحمـلَ[٣]

والسيف عند عمرو بن براقة جلّ ماله لا يفارق عنه و يعتبره أحد أركان الثالوث (القلب الذكي، السيف القاطع، الحمية) الذي يعتمد عليه من يريد أن يبتعد عن المظالم في ذلك المجتمع الذي يدين بشريعة القوّة:

و كيـف ينـامُ الليـلَ مَـن جَـلّ مالِـه حسـامٌ كلـونِ الملـحِ ابـيضَ صـارمُ
الـم تعلمـي أنّ الصـعاليک نـومَهم قليـلٌ إذا نـام الخلـيّ المسـالمُ
متـى تجمـعِ القلـبَ الـذكيّ و صـارماً و انفـاً حميّـاً تجتنبـک المظـالمَ[٤]

والصعاليك يصفون أسلحة الهجوم أكثر من أسلحة الدفاع ولعلّ ذلك يرجع إلى طبيعتهم في الإغارة.

١. لويس شيخو، المجاني الحديثة، قم، ذوي القربى، الطبعة الرابعة، ج١، ص ١٨.
٤. يوسف خليف، المصدر السابق، ص١٨٩.
٣. الشنفرى، المصدر السابق، ص٦٠.
٤. أبو علي القالي، الأمالي في لغة العرب، بيروت، دار الكتب العلمية، ١٩٧٨م، ج٢، ص١٢٣.

٥ـ أحاديث الفرار

يتحدث الشعراء الصعاليك كثيراً عن فرارهم وهربهم ويتكلّمون عنه دون أي حرج أو خجل، وهذا طبيعي لمثل أولئك الناس الذين يعتمدون في حياتهم على الغزو، فإنّهم يفروّن عند الصعاب ليعيدوا الكرّة مرّة ثانية ويصوّرون في فرارهم سرعة العدو ويعتزون به، فنجد تأبط شراً مثلاً يعتمد على ساقيه هو ورفيقاه حينما حصرتهم بجيلة، وكادت تفتك بهم لولا سيقانهم وحسن تخلّصهم، ويصوّر قصة نجاته ويصف شدة عدوه ومطاردة أعدائه إياه فيقول:

نجوتَ منها نجائي من بجيلة إذ ... القيتَ ليلة خبطِ الرهطِ اوراقي
ليلة صاحوا واغروا بي سراعَهم ... بالعَيكَتين لدى معدي ابن برّاق
كأنّما حثحثوا حَصّاً قوادمه ... او امّ خِشْفٍ بذي شَثٍّ وطبّاق[1]

و يدافع أبو خراش الهذلي عن فراره و يقرّر أن فراره ليس لجبنه لأنّه إلى جانب فراره مقاتل شجاع و لكن حينما يرى أن القتال لا يجديه شيئاً يرجّح الفرار على القتال:

فإن تزعمي اني جبَنتَ فإنّني ... افرّ و ارمي مرّةً كلّ ذلك
اقاتِلُ حتى لا ارى لي مَقاتلاً ... و انجُو إذا ما خِفتَ بعضَ المهالك[1]

٦ـ الفقر وآثاره

لاشك أن أول ما نحسه في حياة الصعاليك هو الفقر الشديد الذي لازمهم منذ نشأتهم، والذي كان من أبرز أسباب الصعلكة، ولذلك قد قرنت غاراتهم وغزواتهم بالفقر غالباً وبالمجاعة في أكثر الأحيان.

وقد صوّروا في شعرهم حالهم مع الفقر، وشعورهم نحوه وصراعهم لمقاومته، فنجد تأبط شراً يصف نفسه بأنه لا يملك من الزاد إلا تعلة تحول بينه وبين الموت، حتى برزت أضلاعه من النحول والتصقت أمعاؤه من الجوع فيقول:

قليل ادّخار الزاد إلا تعلة ... فقد نشز الشّرسوفَ والتصق المعا[1]

---

١. عبدالحليم حفني، شعر الصعاليك منهجه وخصائصه، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٨٧م ص ٢٣٣.
٢. يوسف خليف، المصدر السابق، ص٢٠٩.
٣. عبد الحليم حفني، المصدر السابق، ص ١٨٦.

ويقول في محادثة بينه وبين الذئب، إنني مثلك لا أملك شيئاً وإنما اعتمد في معيشتي كما تعتمد أنت على الفريسة:

وقربــةِ اقــوامٍ جعلــتَ عصــامَها ... علــى كاهــلٍ منّــي ذلــولٍ مَرحَــلِ
ووادٍ كجــوفِ العيــرِ قفــرٍ قطعتّــه ... بــه الــذئبَ يعــوي كــالخليعِ المَعيّــلِ
ففلــتَ لــه لمّــا عــوى إنّ شــأننا ... قليــلَ الغنــى إن كُنــتَ لمّــا تمــوّلِ[1]

وقد أشار الصعاليك في شعرهم إلى آثار الفقر في حياتهم فصوّروا الجوع الذي كانوا يعانونه كثيراً كما صوّروا الهزال ونحول الأجسام بصور مختلفة مؤثرة.

٧ـ صراع الهوان في المجتمع

فكما صوّر الشعراء الصعاليك في شعرهم صراعهم الشاق مع الفقر وآثاره، كذلك صوّروا صراعهم مع الهوان الذي كانوا يعانونه في مجتمعهم الطبقي، لأنهم كانوا يجدون أنفسهم في الموضع المهين من المجتمع، ولم تقبل نفوسهم بحكم طبيعتها وتكوينها هذا الموضع، ولم يكن أمامهم لتفادي هذا الهوان إلا الاعتماد على أشخاصهم في قوتهم وعنفهم، وهذا ما نجده في شعرهم بصورة واضحة بحيث تنبئ عن إحساسهم العميق بهذه المعاني وتأثرهم بها. فالشنفرى مثلاً يعبّر عن نفوره من إذلال نفسه باستجداء حسنات الناس مفضّلاً استفاف التراب على ذلك فيقول:

واستفّ تربَ الارضِ كي لا يَرَى لـه ... علــيّ مــن الطــولِ امــرؤٌ متطــوّلُ
ولــولا اجتنــابَ الــذامِ لــم يُلــفَ مشــربٌ ... يَعــاشَ بــه إلا لــديّ وماكــلُ
ولكــنّ نفســاً مــرّةً لا تقــيم بــي ... علــى الــذامِ إلا ريثمــا اتحــوّلُ[2]

ومما لاشك فيه أن هذه المعاني الكثيرة التي كرّروها في شعرهم وأكّدوا شعورهم بها من هوان الفقير في مجتمعهم ومن إيثارهم الموت على ما يلقاه الفقير من هوان ومذلة، تدل على أن اتجاههم إلى الصعلكة لم يكن سببه مجرد الحصول على لقمة العيش أو الوصول إلى الغنى، وإنما كان يحمل مع ذلك الرغبة في إثبات كيان لهم في المجتمع كما يحمل النفور الشديد من أن يكونوا مجرد أفراد في القطيع الذي يسوقه السادة الأغنياء، ويحمل أيضاً الاصرار الشديد على أن يظهروا لأنفسهم كياناً يشعر به

١. نفس المصدر، ص ١٨٦.
٢. الشنفرى، المصدر السابق، صص٦٢-٦٣.

الناس ويحسبوا حسابه.[١]

أهم خصائص شعر الصعاليك[٢]

ويمتاز شعر الصعاليك بعدّة خصائص نشير في ما يلي إلى أهمها:

١ـ أنه يصوّر نوعاً من الأخلاق والنزعات لا نجده في غيره.

٢ـ شعرهم يصوّر نفسيّاتهم وأعمالهم، فهو صدى لواقع حياتهم، لأنّهم صوّروا في شعرهم البيئة البدويّة التي يعيشون فيها بكل مظاهرها من الصحراء القاسية بشعابها و جبالها و أغوارها ولياليها المظلمة و حيواناتها الشاردة، و صوّروا مظاهر الطبيعة كما شاهدوها من طلوع الفجر و غروب الشمس و البرق و الرعد و السحاب و المطر، و صوّروا الواقع الذي يعيشونه بكل ما فيها من خير و شر و بكل ما فيها من عيوب و محاسن.

٣ـ يتميز شعرهم بوحدة الموضوع، فليس فيه مقدمات تمهيدية من غزل وبكاء أطلال ووصف لرحيل أو رواحل أو استطراد إلى موضوع آخر و نجد في مقطوعاتهم و أكثر قصائدهم وحدة موضوعية بحيث نستطيع أن نضع لكل مقطوعة عنواناً خاصاً بها.

٤ـ أكثر شعرهم مقطوعات لا قصائد، ولعل مردّ ذلك إلى أنهم ذوو خفّة وسرعة واختلاس لم يألفوا التمهل والتروي والتنميق، فجاء شعرهم صورة لحياتهم.

٥ـ ليس في شعرهم غزل، وكيف يتغزّل من يقضي نهاره يترقّب، وليله يترصّد ولا يستقرّ في مقام.

٦ـ في شعرهم مظاهر قصصية، حيث إنّ الشاعر الصعلوك يسجّل في شعره كلّ ما يدور في حياته الحافلة بالحوادث المثيرة التي تصلح مادة طيبة للفن القصصي. فحوادث مغامراتهم و أخبار فرارهم و تشرّدهم في أرجاء الصحراء و تربّصهم فوق المراقب في انتظار ضحاياهم، كل هذا و غيره من مظاهر حياتهم مادة صالحة للفن

١. عبدالحليم حنفي، المصدر السابق، ص٢٠٢.

٢. أحمد حوفي، المصدر السابق، ص٣٠٧. و يوسف خليف، المصدر السابق، صص٢٥٣-٢٧٦.

القصصي و قد استغلّ الشعراء الصعاليک هذه المادة في شعرهم أحسن استغلال.

خاتمة البحث

الصعاليک هم المتمرّدون على الأوضاع و التقاليد القاسية السائدة في المجتمع الجاهلي. و نجد من الصعاليک في العصر الجاهلي مجموعة من الخلعاء و الشذاذ الذين خلعتهم قبائلهم لكثرة جرائرهم، و مجموعة من أبناء الحبشيات السود الذين نبذهم آبائهم، و مجموعة لم تكن من الخلعاء و لا من أبناء الحبشيات إلاّ أنّهم احترفوا الصعلكة.

يتميّز الصعاليک في حياتهم و أخلاقهم بالفقر و حدّة الجوع، و الثورة على واقعهم الاجتماعي و الابتعاد عن الحياة القبلية و ما فيها من أعراف ظالمة، و بالفخر و بالشجاعة و العدو السريع و تحمّل المشاق ابتعاداً عن الذل، و الإيثار و الكرم. و طموح الصعاليک في حياتهم هو الغنى و لكنّهم لكرمهم لا يدّخرون المال حتى يصبحوا أغنياء، بل يوزّعونه على الفقراء و الأيتام و المحتاجين.

كان للصعاليک شعر كثير قد ضاع جزء كبير منه و وصل إلينا بعض منه عن طريق الكتب الثقافية العربية، و مجموعات المختارات من شعر الشعراء، و كتب التراجم.

تطرّق الشعراء الصعاليک في شعرهم إلى موضوعات مختلفة ترتبط بواقع حياتهم مثل المغامرة، و المراقبة، و التوعّد و التهديد، و وصف الأسلحة، و أحاديث الفرار، و الفقر و آثاره، و صراع الهوان في مجتمعهم. و يتميّز شعرهم بميزات منها تصوير واقع حياة الصعاليک و أخلاقهم، وحدة الموضوع، كونه بصورة المقطوعات بدل القصائد، خلوّه من الغزل و المقدمات الطلليّة، و الصبغة القصصية فيه.

المصادر

ابن السكيت، ***شرح ديوان عروة بن الورد***، بيروت، دار الكتاب العربي، الطبعة الأولى، ١٩٩٤م.

ابن منظور، ***لسان العرب***، بيروت، دار احياء التراث العربي، الطبعة الاولى، ١٩٨٨م.

آذرشب، محمد علي، ***الأدب العربي وتاريخه حتى نهاية العصر الاموي***، طهران، سمت،

الطبعة الرابعة، ١٣٨١ هـ. ش، ٢٠٠٢ ميلادي.
الاصفهاني، أبوالفرج، ***الأغاني***، تحقيق، سمير جابر، بيروت، دارالفكر، الطبعة الثانية، ١٩٩٥ م.
الجاحظ، عمرو بن حرب، ***حياة الحيوان***، تحقيق عبد السلام هارون، بيروت، دار الجيل، ١٩٩٦م.
حفني، عبدالحليم، ***شعر الصعاليك منهجه وخصائصه***، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٨٧م.
حوفي، احمد، ***الحياة العربية من الشعر الجاهلي***، القاهرة، دار نهضة مصر، الطبعة الخامسة.
الخفاجي، محمد عبدالمنعم، ***دراسات في الأدب الجاهلي والإسلامي***، بيروت، دار الجيل، ١٩٩٢م.
خليف، يوسف، ***الشعراء الصعاليک في العصر الجاهلي***، القاهرة، دار غريب، ١٩٨٨ م.
السليک بن السلكة، ***ديوان السليک***، تحقيق سعدي الصناوي، بيروت، دار الكتاب العربي الطبعة الأولى، ١٩٩٤م.
الشنفري، ***ديوان الشنفرى***، شرح و تحقيق اميل بديع يعقوب، بيروت، دار الكتاب العربي، الطبعة الأولى، ١٩٩١م.
شيخو، لويس، ***المجاني الحديثة***، قم، ذوي القربى، الطبعة الرابعة، ١٩٩٨م.
ضيف، شوقي، ***العصر الجاهلي***، القاهرة، دار المعارف، ١٣٦٦ ـ ١٣٦٩ ه .
القالي، أبو علي، ***الأمالي في لغة العرب***، بيروت، دارالكتب العلمية، ١٩٧٨م.
مروّة، محمد رضا، ***الصعاليك في العصر الجاهلي***، بيروت، دار الكتب العلمية، الطبعة الاولى، ١٩٩٠م.
الميداني النيسابوري، أبوالفضل أحمد بن محمد، ***مجمع الأمثال***، تحقيق محمد محي الدين عبدالحميد، بيروت، دارالمعرفة، ١٣١٠ ه .

پژوهشگاه علوم انسانی و مطالعات فرهنگی
پرتال جامع علوم انسانی